السمات الفنية في حديث الإخلاص

Aesthetics Features in the Hadith of Sincerity

د۔ کفایت اللہ ہمدانی*

د۔ حافظ حارث سلیم**

Abstract

The status of Hadith is acknowledged and admitted throughout the centuries, as it is the primary source of Islamic law after Quran. The language of hadith is comprehensive, perfect and full of eloquence and rhetoric. We found these artistic, aesthetics and technical characteristics in the Hadith of Sincerity. This is a very beautiful, extensive and important Hadith. Therefore, many Traditionalists and scholars started their books with this Hadith. Due to its significance, many Traditionalists elaborated and evaluated this Hadith half of Islam and some of them considered it a quarter of all Hadith. This article illustrates its excellence and beauty in words, meanings, expression, narrative style and the clarity of the ideas. The paper ends with analysis and various results.

Keyword: Traditionalists, Evaluated, Sincerity, Eloquence, Rhetoric.

حديث الإخلاص شانه جدير لبيان ما فيه من أسرار بيانية وأساليب بلاغية، حملت تلك المعاني والأفكار العظيمة ، ولذا بلغ اهتمام العلماء بهذا الحديث شأواً بعيدا لأهميته، حتى قلّ أن يخلو كتاب لأحدهم من هذا الحديث، يصدّر به كتابه، أو يستفتح به مصنفه، أو يبدأ به قوله، أو يحث العلماء وطلبة العلم على ذلك. كقول بعضهم:"من أراد أن يصنّف كتاباً فليبدأ

* صدر شعبہ عربی زبان وادب، نیشنل یونیورسٹی آف ماڈرن لینگویجز، اسلام آباد۔

** اسسٹنٹ پروفیسر،عربی ڈیپارٹمنٹ گورنمنٹ کالج مری۔

بهذا الحديث"، وقول أخر "كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديمه أمام كل شيء يُبْتدأ أو يُنْشأ من أمور الدين، لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها"، وقول ثالث:"جرت عادة العلماء الابتداء به في أوائل الدروس والمصنفات، حثًّا للطالب على إخلاص نيته في طلب العلم، وبه صدّر البخاري صحيحه، وأقامه مقام الخطبة له، إشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل"[1]

هذا وقد أفاض العلماء في تقدير هذا الحديث، فجعله بعضهم نصف الإسلام، وعدّه الإمام الشافعي ثلث الإسلام أو العلم[2]، وبعضهم[3] عدّه أحد أربعة أحاديث عليها مدار الأحاديث المسندة وعددها أربعة آلاف. فهو يعدل ربع الحديث كله عندهم.

وقد أفرد هذا الحديث بالشرح عدد من العلماء، مثل ابن تيمية والسيوطي[4] ، كما أنه اشتهر وانتشر حتى صار كالمتواتر ، وإن كان من حديث الآحاد.

حديث الإخلاص

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب _رضي الله تعالى عنه_ قال: سمعت رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"[5]

من الأنماط والأساليب البيانية في حديث الإخلاص أو النيّة

يحسن بالباحث أن يقف عند بعض السمات الفنية التي يمكن استنباطها من الحديث نفسه، وهي من الكثرة بحيث لا يحاط بها،ومن العظمة بحيث لاتدرك كلها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، لاسيما ونحن مع كلام أفصح العرب، ذاك النبي العربي الأمي الذي أعطي جوامع الكلم، وأوتي القرآّن ومثله معه، ولعل حديث الإخلاص أو النية أنموذج واضح للبيان النبوي، ومثال صريح للإعجاز البشري في الكلام، ورحم الله شيخ العربية وآدابها، مصطفى صادق الرافعي، إذ يقول واصفا البلاغة النبوية" هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة، ألفاظ النبوَّة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ... محكمة الفصول... محذوفة الفضول... وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره (صلى الله عليه وسلم)[6].

ويرجع الرافعي[7] هذه البلاغة النبوية الفائقة المتميزة إلى أمرين:

1- التوفيق الإلهي، والإلهام الرباني، حتى لا يعيا بقوم إن وردوا عليه، ولا يحصر أن سألوه، ولا يكون في كل قبيل إلّاً منهم، لتكون الحجة به أظهر، والبرهان على رسالته أوضح، وليعلم أن ذلك له خاصة من دون العرب.

2- الفطرة الخاصة المميزة التي فطر الله عليا نبيه، بما فيها من فضائل خلقية وخلقية، كقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها، وصفاء الحسًن، ونفاذ البصيرة، واستقامة الأمر كله "وليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات، وأعطاه الخالص منها، وخصه بجملتها، وأسلس له مآخذها، وأخلص له أسبابها"، فضلاً عما للنشأة اللغوية من شأن، وما للطبيعة والمخالطة والمحاكاة من أثر، وما لسمو الفطرة وقوتها من دور في اكتساب المنطق واللغة، وكأنما وضع النبي (صلى الله وعليه وسلم) يده على قلب اللغة ينبض تحت أصابعه".

ويمكن اختصار القول فيما ورد من بلاغة نبوية في الحديث موضوع الدرس في عدة نقاط، تتمحور حول فكر الحديث، وعبارته، وما فيه من تصوير، وعاطفة، وهذا يكفي لمعرفة سمات أسلوب النبي _صلى الله عليه وسلم_ في هذا الحديث، لأن عناصر الأسلوب كما حددها النقد المعاصر- ثلاثة، هي: الفكرة والصورة والعبارة، أما العاطفة فقاسم مشترك بينها"[8].

أهم السمات البيانية في هذا الحديث

<u>أولا في الأفكار والمعاني:</u> ليس الأدب مجرد كلام يرصف، أو مفردات تؤلّف، بل هو شكل ومضمون، لفظ ومعنى، صورة ومحتوى، فإذا خلا الكلام من فكرة سامية، ومعنى طريف، كان مجرد ألفاظ منمقة لا قيمة لها، وهياكل فارغة لا أثر لها في المتلقّين، وسماعها لا يكاد يجاوز الآّذان، ولا تعدو أن تكون جعجعة لا طِحن فيها، وبهرجة لا وزن لها،

والكلام البليغ غايته الإقناع، ووسيلته الإمتاع، وهما صفتان متلازمتان للأدب الملتزم بقضايا الإنسان، والذي هو تعبير صادق وجميل عن انفعال الإنسان بالكون من حوله.

لذا فإن الفكرة أو المعنى هو أساس في العمل الأدبي، وتقدّر الفكرة فيه بقدر ما فيها من قوة، وجدة، وتحديد، وتسلسل، ولهذه الصفات حظٌ كبير، ونصيب وافر في حديث الإخلاص، وفيما يأتي بيان ذلك:

أ- سمو الفكرة وقوتها: موضوع الحديث وفكرته الرئيسة الإخلاص في النية والعمل، والتوجه إلى الله_عز وجل_ في كل شيء، والقصد إليه في العبادات والطاعات والمباحات. وأي فكرة تداني هذه الفكرة التي تربط الإنسان بخالقه، وتأْطره على منهج النبي_ صلى الله عليه وسلم_ وتجعله ينظر دائما إلى الأمام، ويتطلع إلى المستقبل، ويسعى إلى الهدف الأسمى، ويجعل الدنيا مزرعة للأخرى، ويرنو إلى الملأ الأعلى، والمقام الأسنى، فتصفو نفسه، وتخلص نيته، ويطهر قلبه، وتزكو روحه، ويصلح عمله، ويفرّ إلى الله، فيهجر المعاصي والآثام، ويكون في حفظ الله ورعايته، وبصحبة النبي –صلى الله عليه وسلم- ومعيته؟!، وشتان بين مُخْلِد إلى الأرض ملتصق بالدنيا ومتاعها، وبين متعلق بالأخرى، محب لله ورسوله، ساع لنيل الدرجات العلا، بما أضمر ونوى، وبما عمل وسعى!.

ومع سموّ هذه الفكرة قوة، ففي حين كان العرب يصطرعون لأتفه الأسباب، ويحتربون على حطام الدنيا وفتاتها، من ماء وكلاء، أو سمعة زائفة، وشهرة كاذبة، ويتوجهون إلى الأصنام والأوهام يقدسونها و يسْتشيرونها،

جاء نبي الإسلام _عليه أفضل الصلاة والسلام_ ودعا بحديثه هذا إلى الترفع عن ذلك، وإخلاص النية والعمل لله الواحد الأحد، خالق الأشياء كلها ومدبرها، وموجها لبصائر والأبصار إلى ما فيه سعادة الإنسان في الدارين، وعزته ومنعته.

ب_ جدة الفكرة وطرافتها: لم يكن العرب قبل الإسلام أمة موحدة حتى في عبادتهم، بل كانوا يتخذون أصنامهم وسيلة تقربهم إلى الله، ومقولتهم في ذلك: "مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"[9]، فكانت عقيدتهم فاسدة، ونواياهم غير سليمة، وعبادتهم مشوهة، فلم يكونوا يعرفون الدين الحق، حتى جاء الإسلام فصحّح العقيدة، وخلّص النية، "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة"[10] ولما كان الأمر كذلك فإن فكرة الإخلاص في النية والعمل التي تضمنها الحديث فكرة جديدة تماماً، أُلهمها الرسول _عليه أفضل الصلاة و السلام_ من ربه، واستمدها من القرآن، ولذلك كان عجب الكفار من هذا الأمر التوحيدي الذي ألغى التعدد، وأقر الوحدانية والتفرّد، "أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب"، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد"[11]

فلا شك أن قرن العمل بالنية أمر جديد، ومجازاة كلٍّ يوم القيامة بما نوى في الدنيا، كذلك أمر جديد، والربط بين صلاح النية وحسنها وبين حسن المآل والمصير أمر جديد، و الربط كذلك بين فساد النية وسوئها، وبين سوء المصير والمآل أمر جديد۔

ج- تحديد الفكرة ووضوحها: فكرة الحديث واضحة لا تشوبها شائبة، ومحددة المعالم لا يخالطها شيء، ولا تلتبس بشيء، ويجعل الدكتور محمد رجب البيومي صفة تحديد المعاني " من سمات المفكر المطمئن الذي يجيل النظر طويلا في الأشياء و الخواطر، ليقرن النظير إلى النظير، ويجمع بين الأمور المتقاربة في أحكام تتشابه على قدر ما بينها من الاتفاق"[12].

فالفكرة العامة في الإخلاص في النية والعمل، وهناك أفكار جزئيه أخرى، وهي

1- المرء يجازى بما ينوي.
2- الهجرة الخالصة لله ورسوله جزؤها القرب من الله ورسوله.
3- الهجرة إلى غير الله جزاؤها من جنسها، وتزيد صاحبها بعدا من الله.

وهذه جميعها أفكار واضحة ومحددة، وهي بسيطة لا تلتبس على أحد؛ لأن رسول الله_ صلى الله عليه وسلم _ حدد الفكرة العامة والتفصيلية بدقة متناهية، فتنماز الفكرة عن الأخرى، ولكنها في الوقت نفسه تتحد مع غيرها وتتكامل، لترسم حدود الموضوع العام، والفكرة الرئيسية، بمنتهى الوضوح، ووحدة الموضوع.

د- تسلسل الأفكار: بدأ الرسول _صلى الله عليه وسلم_ بفكرة عامة "إخلاص النية"، وأتبعها بفكرة الجزاء على النية، منتقلا من العام إلى الخاص، ومن السبب إلى النتيجة، انتقالاً منطقياً، وانتقل من التنظير إلى التمثيل، أو إعطاء المثل في نهاية الحديث، كي تزداد الفكرة وضوحاً،

وتقوى في ذهن الملتقّي وتثبت بصورة أكيدة، لاتتزعزع ولا تهتز؛ لأن النسق النبوي في اطراده المتسلسل، وتلاحقه المتتابع لا يحتاج إلى تعقيب، فهو من وضوحه الساطع بحيث تغمره أشعة الشمس بأمواج الضياء"[13].

وليس أدل على سمو أفكار الحديث، وقوتها، وسلامتها، وجدتها، وطرافتها، وتحديدها، ووضوحها، وتسلسلها _ليس أدل على ذلك من سيرورة هذا الحديث_ لاسيما مطلعه" إنما الإعمال بالنيات" وهذا يكشف من جهة أخرى عن حسن مطلع الحديث. أو براعة الاستهلال، وسلامة العرض، وحسن الختام، فلا اضطراب ولا تخلخل، بل إن النص مترابط في معانيه، ومتماسك في مبانيه، فيبدو الكلام آخذاً بعضه برقاب بعض، مرتباً ترتيباً رائقاً، ومنسقاً تنسيقاً فائقاً، فلا تستطيع التقديم أو التأخير، ولا التبديل أو التغيير.

<u>ثانياً: في العبارة والتعبير:</u> يقول الدكتور محمد رجب البيومي واصفاً تعبير النبي _صلى الله عليه وسلم_ وعبارته: "كان بيان محمد _صلى الله عليه وسلم_ سهل المأخذ، قريب المتناول، موجز العبارة"[14]، وإذا تذكرنا أن النبي _صلى الله عليه وسلم_ داعية ومعلم، أدركنا مدى حاجة أسلوب مَن هذه مهمته إلى صفات الوضوح والسهولة والإيجاز، لاسيما أنه _صلى الله عليه وسلم_ يعلم أن من سمعه سيبلّغ عنه، وصدقت عائشة أم المؤمنين _رضي الله عنه_ حين قالت :"ما كان رسول الله يسرد كسردكم ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصل، يحفظه من جلس إليه"[15]، وفي رواية : "كان رسول

الله _صلى الله عليه وسلم _ يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه"، وفيما يأتي إجمال لبعض سمات التعبير النبوي :

أ- **الألفاظ المنتقاة:** وهذه صفة تجري على لسان رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ لما فطره الله عليه، وبحكم تكوينه ونشأته، ومن مظاهر الألفاظ المنتقاة في هذا الحديث:

1- كلمة "الأعمال" وتقابلها كلمة "النيات" حيث وردت كلتا الكلمتين بالجمع وبالتعريف الاستغراقي أو الجنسي أو العهدي، لإفادة العموم والشمول، لاسيما كلمة "الأعمال" حيث تستوعب الأعمال كلها من أفعال وأقوال وهم نفسي، كما أنها تشمل العبادات وغيرها، وهي كلمة سهلة ومأنوسة وواضحة.

2- كلمة "امرئ": تشمل الذكر والأنثى، وقد أعطت دلالة عامة لاسيما باقتران لفظ "كل" بها، كما أنها توحي بالمروءة.

3- كلمة "دنيا": فهي _على بساطتها_ جمعت مظاهر الدنيا وأشكالها المختلفة، وقد أفادها ذلك التنكير، مع ما فيها من دلالة على الدنو والدناءة، وقلة الشأن، وهذا مناسب تماماً للسياق.

4- كلمة "يصيبها" دلت على معنى الكسب الحلال، وصواب السعي إليه، ومشروعيته.

5- "امرأة" وقد ذكرت المرأة هنا لأهميتها من الدنيا، فهي خير متاعها، ولكونها خير ما يستفيد المؤمن بعد تقوى الله _عز وجل_ وهي النصف الثاني للرجل، وعليها

تبنى الأسرة، وبهما تنهض، وما أيس الشيطان من ابن ادم من شيء إلا أتاه من قبل امرأة".

6- "ينكحها": لا يكون النكاح إلا بدخول الرجل بالمرأة دخولا شرعياً، ومن هنا يتبين لنا أهمية الكلمة ومدى مناسبتها للكشف عن سلامة القصد من المرأة، ومع ذلك فإن الهجرة بنية النكاح، دون أن يكون ذلك لله، لا تكون معتبرة أو مقبولة، ومن باب أولى أن تكون الهجرة بنية كسب دنيوي آخر كذلك.

ب _ وضوح التراكيب وسلامة النظم: وقد اتضح ذلك عند الحديث عن أنماط الجملة الاسمية، والأسلوب الخبري والتوكيد، وأسلوب القصر، والتقديم والتأخير، والشرط، والوصل، والإيجاز، والإطناب، والمقابلة، كما بينا في المبحث الأول، حيث روعي في ذلك كله معاني النحو والبلاغة، والسلامة اللغوية، بيسر وبسهولة ووضوح، حتى يظن الناظر أو السامع للوهلة الأولى أنه يستطيع الإتيان بمثل ذلك، ولكنه يرتد كسيرا.

وليست السهولة رديفة السذاجة أو الابتذال، كما أن السهولة لا تمنع التعمق في الفكرة، وسداد الرأي والنظرة، بل إنها الرقة التي تتناسب والموضوع، وتتناسق في السياق، فما أعظم قول النبي _صلى الله عليه وسلم _ :" إنما الأعمال بالنيات"! وما أعظم قوله :" وإنما لكل امرئ ما نوى "! فألفاظ العبارتين ظروف شفافة، ناطقة بمعانيها بلا غموض أو غرابة، وصائبة مقاصدها بلا التباس أو حيرة، ولذلك ذهبت هاتان العبارتان مذهب الأمثال، وسارتا

بين الناس سيرورة واسعة، ناهيك عما فيهما من كناية أو تعريض عند التمثل بهما في سياقات مماثلة[16].

ج_ **العفوية والبعد عن التكلف:** لقد ذم رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ المتشدّفين والمتفيهقين، كما نفى الله عن نبيه _صلى الله عليه وسلم _ ذلك "وما أنا من المتكلفين"[17]، لذلك كان حديث رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ ينساب انسياباً، يخرج من القلب، فيدخل الآذان بلا استئذان، ويستقر في القلب، وما ورد في حديثه_عليه الصلاة والسلام_ من ألوان البديع فإنما جاء عفو الخاطر، واقتضاه المقام.

ففي الحديث موضوع الدرس نجد المقابلة، مثلاً في نهايته بين نموذجين للمهاجرين: أحدهما لله ولرسوله، والثاني لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، ولما كان الحديث عن الأعمال وقبولها، أو احتسابها بالنيات، فقد اقتضى المقام المقابلة بين هذين النموذجين بعبارات سهلة واضحة، ونظم متين دون أن يحس المتلقي أي أثر للتكلف.

وهذا أمر بدهي لصاحب رسالة يحرص على إيصالها واضحة، وتأديتها كاملة، همه الصدق في القول، والإخلاص في العمل، وهو أمر مفهوم لنبي أعده الله واصطفاه لحمل أمانة ثقيلة، وتبليغ رسالة خطيرة، وهو أمر طبيعي لامرئ نشأ هذه النشأة السليمة في قريش، وبني سعد، حيث اجتمعت الفطرة القويمة، والنشأة السليمة، والمهمة العظيمة في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم).

3_ حسن التقسيم وصحته: من الأمور الخاصة بالعبارة والتعبير حسن التقسيم، ويعني ذكر متعدد وإضافة ما لكل إليه

على التعيين[18]، وقد ورد منه في الحديث موضوع البحث قول النبي _صلى الله عليه وسلم_:"فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" بعد قوله: " وإنما لكل امرئ ما نوى"[19]، حيث قسم الهجرة والنية_ وهي متعدد_ إلى قسمين:

هجرة خالصة لله ورسوله، وهجرة لغرض دنيوي، وقد عبر عن ذلك بأسلوب يتسم بتوازن الجمل وتساويها، إضافة إلى ما فيها من المقابلة قد سبقت الإشارة إليها، وهذه الصفة في الكلام تدل على سلامة العقل، وصحة التفكير، ورجاحة الرأي، وذلك مما يزين اللفظ، ويقوي المعنى، ويثبته في الأذهان، ويركزه في العقول، وما يجعل التقسيم قبولاً مع حسنه وصحته، فالمهاجر لا يكون إلاّ أحد اثنين ذكرهما الرسول _عليه الصلاة والسلام – فإما إلى الله ورسوله وإما إلى الدنيا ومباهجها، ومن ثم يكون الجزاء قسمين كالعمل.

4-الموسيقى وحسن الإيقاع : قد يتوافر للنثر موسيقى وإيقاع كما في الشعر، وإن لم يكن في النثر وزن وقافية، ويتأتى ذلك من الموازنة بين الجمل، والمساواة بينها، بما تشتمل عليه من موسيقى داخلية وخارجية، ففي الحديث أربع جمل أساسية، كل اثنتين منها على نسق واحد، وبينهما موازنة، فالجملة الأولى "إنما الأعمال بالنيات " على نسق الثانية "وإنما لكل امرئ مانوى". والثالثة "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله" على نسق الرابعة

"ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليها".

وذلك النسق يترك للمتلقي فرصة للتأمل، كما أن هذا التوازن والتقابل يسهل الحفظ على من أراد، ولا ننسى في خضم ذلك انسياب الألفاظ ورقتها، وسلاسة العبارات والتراكيب وسهولتها، وتآلف الحروف والأصوات، وحسن الازدواج بين الجمل، الأساسية منها والفرعية، وانظر كم يترك قوله: " لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها " من أثر في النفس؟

وقد تكرر في الحديث بعض المفردات من قبيل رد الأعجاز على الصدور، أي إعادة لفظة بعينها أو ببعض مشتقاتها في ثنايا الجملة أو في آخرها، وكانت قد ذكرت في بدايته، مثل "النيات" و "نوى"، و"هجرته" و "هاجر"، وفي ذلك توزيع لفظي وصوتي، وتناسق معنوي، يزيد المتلقي إمتاعاً.

ج- في الصورة و التصوير: يمتاز الأدب بجمال التعبير، إضافة إلى صدق العاطفة، فيكون أوقع في النفس، وأشد في التأثير، مما يأسر اللب، ويملك القلب، فلا يجيد المتلقي عن الإقتناع بفكرة المبدع، والانجذاب إليه، والميل معه.

ويقوم جمال التعبير أو التصوير في الكلام على ما فيه من خيال كلي وجزئي، ويقصد بالخيال الكلي تصوير الحالة أو الهيئة، ونقلها إلى المتلقي واضحة جلية، بعبارة متأنقة حسنة النظم، أما الخيال الجزئي فهو ما يشتمل عليه الكلام من تشبيهات واستعارات ومجازات مرسلة وعقلية وكنايات، ولا يقصد بالخيال هنا الوهم أو الكذب والاختلاق، بل القدرة على عرض الواقع بصورة مؤثرة، تبدو جديدة للمتلقي، وكأنه يراها

أول مرة، وقد يخلو الكلام من الصور الجزئية، ولكنه لا يعدم الخيال الكلي أو الصور الكلية، بحسن التنظيم والترتيب، وجودة العرض.

وقد توافر لحديث الإخلاص القدر المناسب من الخيال الكلي لخدمة الفكرة، وإيضاح المعنى، وتوصيله بدقة، فهاهي النية، وهي أمر خفي تنعكس على العمل، صحة وكمالاً، ورفضاً وقبولاً، وثوابا وعقاباً، وهاهو ما نواه كل شخص يتمثل عاقبة له ماثلة بين يديه، وها هو المهاجر في سبيل الله ولنيل رضاه ينتهي به المطاف إلى الحضرة الإلهية، والصحبة النبوية، فينجح مسعاه، ويرتقي سلم المجد، ويتسلم من النجاح ذراه، فتراه يحلق في آفاق الرضا الإلهي، ويتقلب في النعيم الرباني، مع الأنبياء والصديقين.

وعلى الجانب الآخر نجد صورة ذلك المهاجر للدنيا بمفاتنها، يغرق في أوحالها، ويعلق في حبالها، فلا يستطيع الارتقاء، بل كلما نهض خبا، وحيثما سار كبا، فيهوي في مهاوي الردى، ويسقط عائداً لما بدا، فلا ترى له قامة، ولا ترتفع له هامة.

وشتان بين هاتين الصورتين المتقابلتين، فمن يعدل لله ورسوله بدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها إلا من سفه نفسه ؟!

ولانعدم في الحديث بعض الخيال الجزئي الذي تمثل في بعض الصور البيانية، كالمجاز المرسل الذي علاقته السببية في لفظ "ما نوى"، حيث ذكر الشيء الذي نواه المرء، وأراد نتيجته أو عاقبته، فذكر السبب وأريد المسبب، وكالمجاز المرسل الذي علاقته الكلية في لفظ "دنيا" حيث ذكرت الدنيا، وأريد بعضها، كما دل عليه لفظ امرأة بعد ذلك،

فذكر الكل وأريد الجزء، ويمكن توجيه لفظ "دنيا" هنا كذلك على سبيل الاستعارة المكنية، حيث شبهت الدنيا بغرض مادي يمكن تحصيله أو كسبه، فحُذِف المشبه به وذُكِر شيء من لوازمه" يصيبها" على سبيل الاستعارة المكنية، ولا ننسى ما في التعبير بـ"إنما" من معنى التعريض كما أشرنا سابقاً.

ويتمم ما ذكر من سمات فنية للحديث عاطفة صادقة، لا تشوبها شائبة، ومشاعر إنسانية نبيلة ، تتمثل في الحرص الشديد على سعادة الإنسان في الدارين، وإحساس عميق بالمسؤولية الملقاة على عاتق النبي _صلى الله عليه وسلم_ في الدعوة إلى الخير، والترغيب فيه ، والتحريض عليه، والتنفير من الشر، والترهيب من عواقبه، والتحذير من الوقوع فيه. وهكذا تتضافر هذه الظواهر الفنية في مجالات الفكرة والعبارة والصورة والعاطفة، لإنتاج هذا النص الممتع المقنع.

ما يرشد إليه الحديث:[20] في الحديث مجموعة من القيم التي يمكن إبرازها كما يأتي :

1- النية سبب صلاح العمل أو إفسادة، فلتكن نية المرء صالحة، ليكون عمله صالحاً.
2- الإخلاص في النيّة كله - تعالى – أمر واجب في أعمال العبد كلها.
3- النيّة وسيلة للتفريق بين العادة والعبادة، وبها يصبح كل عمل عبادة.
4- نية المؤمن خير من عملة، لذا فإن المرء يؤجر حسب نيته، فنيه بلاعمل خير من عمل يلاقيه .

5- ضرورة مراقبة الإنسان نفسه في كل عمل يعمله وأثناءه، للتأكد من الإخلاص فيه.
6- التحذير فتنة الدنيا بعامة والمرأة بخاصة .
7- الحرص على تطبيق الشريعة وحفظ الدين ونشره، ولو اقتضى ذلك الهجرة إلى مكان آخر.
8- إعراض القلوب عن الدنيا ومفاتنها، مع الحرص على العمل الحلال والكسب المشروع.
9- الإخلاص أحد جناحي العمل المقبول، وموافقته للشر.

خلاصة القول

1. استحقّ حديث الإخلاص هذه المنزلة الرفيعة والمنزلة العالية، والقيمة السنيّة، بنظمه وبيانه، وشكله ومضمونه، ولفظه ومعناه، وبما اشتمل عليه من فرائد معنوية وفوائد لغوية .
2. الحديث -على وجازته -مكتنز بالأفكار السامية، والمعاني النبيلة، والقيم العالية المربّبة.
3. اشتمل الحديث على مجموعة من الأساليب البيانية الراقية التي جاءت مناسبة للمعاني والافكار، ومتناسقة فيما بينها.
4. الحديث سديد المعنى، محكم المبنى، مع سهولة في العبارة، وبساطة في الصورة، وواقعية في النظرة، ونقاوة في العاطفة .
5. الحديث من جوامع الكلم .
6. أسلوب الحديث سهل ممتنع.

7. أفاد الحديث من القرآن الكريم في المعنى والمبنى، ولاغرو في ذلك فالقرآن هو الأستاذ الأول للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

المصادر والمراجع

[1] أبو صفية، عبد الوهاب، شرح الأربعين النووية في ثوب جديد، الطبعة الثالثـة (1416هـ،1995م)، نقلا عن الأذكار للنووي،ونيل المرام شرح عمدة الأحكام لمجموعة من العلماء.

[2] العيد، ابن دقيق ، شرح الأربعين النووية، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة، ص 10،

[3] هو أبو داود، وينظر في ذلك أبو صفية، مصـدر سـابق، ص 17، نقلاً عن جـامع العلـوم والحكم، لابن رجب الحنبلي.

[4] أبو صفية: مصدر سابق ص 18.

[5] البخاري ،محمد بن عبدالله ، الجامع الصحيح البخاري 1، دار الجبل بـيروت 1334ه ، /9 رقم الحـديث (1) وأيضا مسلم ، ابن حجاج ، الجامع الصحيح مسلم دار الجيل بيروت ، وطبعتها مصورة من الطبعة التركيـة المطبوعة سنة 1334 هـ ، رقم الحديث (1907

[6] الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الطبعة الثانيـة، مطبعـة الاسـتقامة بالقـاهرة (1965) ص 312.

[7] الرافعي، المصدر نفسه، ص316- ص 319.

[8] البيومي، محمد رجب، البيان النبوي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى (1407هـ ، 1987م) ص 216.

[9] سورة الزمر : الآية (3).

[10] سورة البينة: الآية (5).

[11] سورة ص: الآيتان (6.5)

[12] أبو صفية، عبد الوهاب، شرح الأربعين النووية في ثوب جديد ، ص 222.

[13] البيومي ، مرجع سابق، ص 226.

[14] البيومي، مصدر سابق ، ص 247.

[15] المصدر السابق، والصفحة نفسها.

[16] تذكر بعض الروايات أن الرسول _صلى الله عليه وسلم_قال هذا الحديث جواب عن سؤال من سـأل عن مهاجر أم قيس، ولم يثبت ذلك.

[17] سورة ص آية 86.

[18] الحملاوي، الشيخ أحمد ، زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، مطبعة مصـطفى البـابي الحلـبي وأولاده، مصر، الطبعة السابعة (1391ه، 1971م).

[19] يمكن عدّ هذا من قبيل التفصيل بعد الإجمال، فيدخل في أسلوب الإطناب.

[20] البيطار، خالد ، البيان في شرح الأربعين النووية –، الطبعة الأولى " 1407هـ - 1987م " مكتبـة المنـار / الزرقاء / الأردن .وكتاب " شرح الأربعين النووية " لأبي صفية ، مرجع سابق ،ص 20-21 .